فلسفة الزمن والإيقاع.. من الكندي إلى الفارابي

كتب القاهرة ـ العربي الجديد

28 فبراير 2026 | آخر تحديث: 07:03 (توقيت القدس)

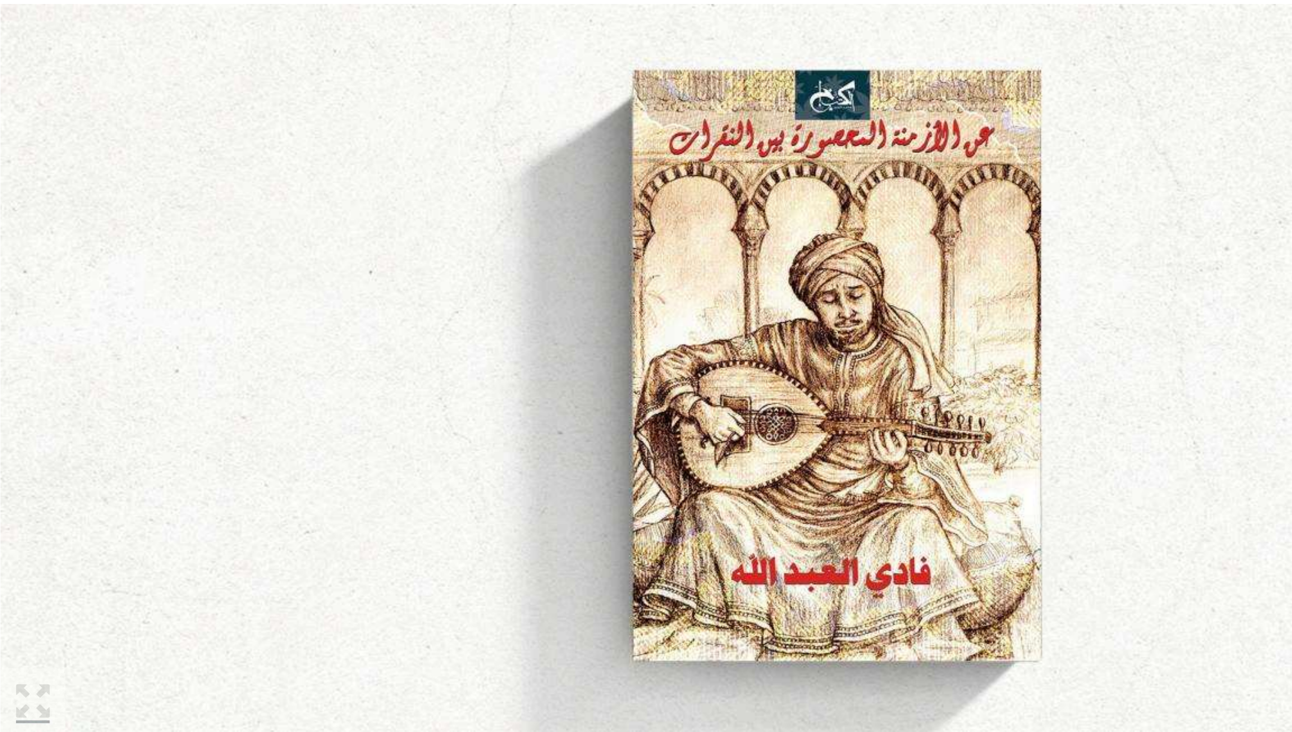

غلاف الكتاب

الخط
إظهار الملخص

يُحسب للفيلسوف العربي أبي يوسف يعقوب بن إسحق الكندي أنه نقل التفكير في الإيقاع من حيّز الممارسة الشفوية إلى فضاء الوصف والتنظير المكتوب، حين سعى إلى تصنيف الإيقاعات في أصول أو أجناس يمكن ردّ التنويعات إليها. لم يقدّم الكندي نظرية مكتملة بالمعنى الحديث، لكنه دشّن تفكيراً تجريدياً مبكراً يقوم على التقسيم والقياس، واضعاً الإيقاع داخل أفق معرفي يتجاوز الأداء العفوي. تلك البذرة التي ظهرت في العصر العباسي ستتحول لاحقاً إلى تقاليد نظرية متشعبة، وهو المسار الذي يتتبعه الباحث اللبناني فادي العبد الله في كتابه "عن الأزمنة المحصورة بين النقرات" (دار الكتب خان، 2026).

بين تقديس التراث الموسيقي وتجاوزه أو تهميشه، يقترح الكتاب مقاربة ثالثة، تنطلق من قراءة تكشف البنية الذهنية للنظريات الموسيقية كما تشكّلت في سياقاتها التاريخية، ويتعامل مع النصوص باعتبارها كاشفة عن أنماط تفكير في الزمن والصوت، لذلك يحذر من إسقاط مفاهيمنا الحديثة على تنظيرات القدماء؛ فلكل معرفة شروطها وأدواتها.

العنوان نفسه يحمل مفتاح القراءة، فالإيقاع ليس مجرد نقرات مسموعة، فهو أيضاً الأزمنة الصامتة الفاصلة بينها، وما يُسمع لا يكتمل إلا بما لا يُسمع. من هنا ينطلق العبد الله ليفكك كيف فهم فلاسفة الإسلام وموسيقيّوه مسألة الزمن والإيقاع، وكيف حاولوا ضبط العلاقة بين الحركة والسكون، وبين الضربة والسكتة، وبين الامتلاء والفراغ.

ويتتبع المؤلف أحد الضروب الإيقاعية المهمة، وهو "المخمس"، عبر قرون طويلة من التحول، حيث يبدأ ذكره عند صفي الدين الأرموي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث ذكره في كتابه "ا لأدوار"، ثم يرصد تشعب المصطلح عبر الشروح وا لتقاليد المختلفة، وصولاً إلى القرن العشرين، حيث نجد منه ثلاثة أنماط: مخمساً عربياً من ثماني نبضات، ومصرياً من ست عشرة نبضة، وتركياً يمتد إلى اثنتين وثلاثين نبضة.

تأثرت ضروب الإيقاع بالتبادل الثقافي بين العرب والفرس والترك

هذه الاختلافات العددية لا يراها الباحث مجرد فوضى في النقل، بل تعبير عن تحولات بنيوية عميقة، فالتسمية الواحدة قد تغطي أنساقاً إيقاعية مختلفة، لكنها تحتفظ بخيط داخلي يربطها بأصل مشترك. هنا يقترح مفهوم "الحقول الإيقاعية"، وهي وحدات زمنية قصيرة، ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، تتكرر وتتضاعف لتبني الضروب الطويلة، أي أشبه بمقاطع صغيرة تتجاور لتكوّن بنية أطول. وفق هذه المقاربة، يمكن فهم كيف يحتفظ "المخمس" باسمه حتى حين يتضاعف عدد نبضاته، لأن جوهره لا يكمن في الرقم الظاهر، بل في توزيع النقرات الأساسية التي تشكله.

الضروب الإيقاعية، كما يبيّن الكتاب، لم تكن معزولة عن محيطها الثقافي، بل تأثرت بحركات الترجمة والتبادل الثقافي بين العرب والفرس والترك، وما يبدو اليوم تراثاً صافياً يتضح أنه حصيلة حوار طويل عبر الجغرافيا والتاريخ. في تتبعه لمسار التنظير الموسيقي، يعود المؤلف إلى أبي نصر الفارابي الذي ميّز بين تسريع الإحساس بالإيقاع عبر تحويل السكتات إلى نقرات، وبين تسريع الإيقاع ذاته، في ملاحظة تكشف وعياً مبكراً بكيفية إدراك الإنسان للزمن. كما يستحضر ابن سينا الذي ربط الإحساس بالإيقاع بقدرة التخيل على جمع نغمتين منفصلتين زمنياً في وحدة واحدة، معتبراً أن تقدير هذه القدرة مما تكشفه التجربة لا التأمل النظري وحده.

ويفرد الكتاب مساحة لمقارنة ثلاث مقاربات نظرية، حول الكندي الذي ميز الإيقاعات بوصفها أجناساً عامة من دون تمييز دقيق بين أنواع النقرات، والفارابي الذي أسس لنظرية أكثر تركيباً تعطي للسكتات دوراً حاسماً، وإخوان الصفا الذين سعوا إلى ربط الموسيقى بالرياضيات والفلك لإثبات انسجام الكون. هذه المقارنة لا تهدف إلى المفاضلة، بل إلى إبراز تنوع المناهج، من التصنيف التجريبي إلى التحليل الرياضي، ومن البحث في بنية الصوت إلى النماذج الفلسفية.

لغة الكتاب تحاول أن توازن بين الدقة والوضوح، فهو يستخدم أحياناً الترميز الحديث (دُم/تك) لتقريب الصورة، ويشرح المصطلحات الأساسية من دون إفراط في التبسيط. ومع ذلك، لا يخفي تعقيد الموضوع؛ فالقارئ مدعو إلى متابعة مسار تحليلي يتطلب قدراً من التركيز، لكنه يكافئه بإعادة اكتشاف بنية الإيقاع العربي بعيداً عن الصور النمطية.

إن تتبع الكتاب لتحولات الإيقاع من بغداد إلى الشام والقاهرة وإسطنبول يكشف عن كيفية تشكّل الثقافات عبر التفاعل لا الانغلاق. فالإيقاع هنا يصبح شاهداً على تاريخ من الأخذ والرد، ومن التهجين والتعديل، حيث لا توجد هوية صافية بل صيرورة مستمرة وتلاقح دائم بين الثقافات والهويات.

كتب

سروري والعروسي في كتاب جديد عن العقل العربي والذكاء الاصطناعي

دلالات

العصر العباسي التفكير المنطقي الفلسفة التراث الموسيقى

الأكثر مشاهدة

1 هكذا تربّح ترامب وعائلته وأعوانه من الحرب على إيران

2 ترامب تراجع عن شمول لبنان بالهدنة بعد مكالمة مع نتنياهو

3 جنود أميركيون يكذبون رواية هيغسيث: موقعنا في الكويت لم يكن محصناً

المزيد في ثقافة

[الكاتبة الأميركية فريدا ماكفادين تكشف هويتها الحقيقية]

[متحف هولندي يعرض لوحة مزوّرة لفان غوخ]

[رحيل الكاتبة والروائية الجزائرية ليلى مروان]

اشترك في النشرة البريدية *

البريد الإلكتروني

اشترك الآن